« وكان من حديث بنى قينقاع[1] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق بنى قينقاع ثم قال : يا معشر يهود • احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا ، فانكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله اليكم • قالوا : يا محمد ، انك ترى أنا قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس •

قال ابن اسحاق : فحدثنى مولى لآل زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير أو عن عكرمة عن ابن عباس قال : ما نزل هؤلاء الآيات الا فيهم : قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد • قد كان لكم آية فى فئتين التقتا أى أصحاب بدر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ، ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار •

ثم[2] « كان من أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست الى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت • فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع •

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة قال : فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (خمس عشرة ليلة)[3] حتى نزلوا على حكمه ، فقام اليه عبد الله بن أبى بن سلول (رأس المنافقين) حين أمكنه الله منهم فقال : يا محمد أحسن فى موالىّ ، وكانوا حلفاء الخزرج قال : فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد أحسن فى موالىّ • قال : فأعرض عنه • فأدخل يده فى جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم ••• فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) السيرة ٢/٤٧ .
(٢) السيرة ٢/٤٨ .
(٣) زيادة من ص ٤٩ .

أرسلنى وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه ظللا ثم قال : ويحك ، أرسلنى . قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ ، أربع مائة حاسر وثلاث مائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم لك » .

واذا كان عبد الله بن أبى رأس المنافقين قد وقف بجانب يهود بنى قينقاع ، ففى المقابل وقف ضدهم عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه الذى مشى حالا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أحد بنى عوف ، لهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أبى فخلعهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبرأ الى الله عز وجل والى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلفهم ، ففى عبادة بن الصامت وعبد الله ابن أبىّ رأس المنافقين نزلت هذه القصة فى سورة المائدة[1] قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم ، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » .

فهذه المجموعة الكريمة من الآيات تنهى المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء وتنبه المؤمنين الى أن اليهود أولياء النصارى والنصارى أولياء اليهود . كما تنص على أن الذين فى قلوبهم مرض من أمثال عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين ، هم الذين يسارعون فى اليهود والنصارى وقد جاء على لسان رأس المنافقين حينما طلب من المصطفى صلى الله

---

(١) الآيات ٥١ — ٥٦ .

عليه وسلم أن يحسن الى مواليه اليهود ، لأنه امرؤ يخشى الدوائر ! إن رأس المنافقين الأعمى البصيرة هذا يسارع فى اليهود ويحرص على ولائهم بينما المصطفى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون أمام عينيه : فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

وتخاطب الآيتان الأخيرتان المؤمنين بأن وليهم الله عز وجل ورسوله والمؤمنون وتعدانهم بالنصر المبين إذا طبقوا هذه التعاليم بحذافيرها . قال تعالى خطابا للمؤمنين : انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله ، والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون . وإن عبادة بن الصامت من هؤلاء المؤمنين اذ تبرأ الى الله ورسوله من حلف اليهود الذى كان فى الجاهلية .

عمل فدائى :

حينما نقض اليهود عهدهم مع المصطفى صلى الله عليه وسلم ، تصدى لهم فيمن تصدى الأنصار ، الأوس والخزرج . فقد تخلص الحيان باذن من المصطفى صلى الله عليه وسلم من شيطانى يهود اللذين آذيا المسلمين أذى بليغا . والشيطان الأول كعب بن الأشرف والشيطان الثانى سلام بن أبى الحقيق .

أما كعب بن الأشرف ، من يهود بنى النضير[٢] ، فبعد أن نصر الله تعالى المسلمين فى بدر قال حين بلغه الخبر : « أحق هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان — يعنى زيدا وعبد الله ابن رواحة[٣] — فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

فلما تيقن عدو الله الخبر ، خرج حتى قدم مكة .. وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب من قريش ، الذين أصيبوا ببدر[٤] » .

---

(١) الحج ، ٤٦ .
(٢) انظر السيرة ٢/٥١ .
(٣) كان النبى صلى الله عليه وسلم قد بعث زيد بن حارثة وابن رواحة للمدينة بشيرين بالنصر
(٤) السيرة ٢/٥٢ .

ونحب أن ننبّه الى أنه جاء فى الكتاب الذى كتبه المصطفى صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة مباشرة والذى التزم به المسلمون واليهود هذا القول[1] : « وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها . وانّ بينهم النصر على من دهم يثرب » ولكن عدو الله يذهب من يثرب الى مكة كى يحرض كفار قريش على المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين .

« ثم[2] رجع كعب بن الأشرف الى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من لى بابن الأشرف ؟ فقال له محمد بن مسلمة ، أخو بنى عبد الأشهل ، أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله . قـــال : فافعل إن قدرت على ذلك » . وانضم الى محمد بن مسلمة نفر من الأوس[3] . « ومشى معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بقيع الغرقد ثم وجههم فقال : انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم[4] » واستجاب الله تعالى دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم وعادت تلك الفرقة الفدائية المجاهدة منصورة موفورة العـــدد .

أما سلام بن أبى الحقيق ، فقد كان من أهل خيبر ، وكان من نصيب الخزرج . فان هذين الحيين « الأوس والخزرج ، كانا يتصاولان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تصاول الفحلين . لا تصنع الأوس شيئا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا غناء الا قالت الخزرج : والله لا تذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الاسلام . قال : فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها . واذا فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس مثل ذلك[5] » .

وهكذا يتبين كيف تضامن الأنصار ، أوسهم وخزرجهم وكيف تنافسوا على الخير . وذلك سر نجاح المسلمين فى صدر الاسلام وفى كل العصور . ومعروف أن الأوس والخزرج قبل الاسلام كانوا الغاية فى كره بعضهم بعضا . ويكفى أن نضرب مثلا واحدا على ذلك كى نتبين شيئا من قيمة الأخوة فى الاسلام والتى أصبح الأوس والخزرج بسببها أحبابا .

---

(١) السيرة ٥٠٤/١ .
(٢) السيرة ٥٤/٢ .
(٣) السيرة ٥٥/٢ .
(٤) السيرة ٥٦/٢ .
(٥) السيرة ٢٧٤/٢ والقائل هو كعب بن مالك .

لقد بعث المصطفى صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة مصعب بن عمير كى يفقه المدنيين الأوس والخزرج فى الدين • وعلى الرغم من أنهم دخلوا فى الاسلام فانهم لكونهم حديثى عهد به ، وحديثى عهد بالعداء الذى كان بينهم فى الجاهلية والذى تمثلت آخر حلقاته فى حرب بعاث ، فان الصلاة حينما تحين ، يرفض الأوسيون أن يؤمهم خزرجى ويرفض الخزرجيون أن يؤمهم أوسى • ويرضون جميعا بمصعب بن عمير إماما[1] وشاءت ارادة الله تعالى أن يتحول بالاسلام العداء الى محبة وتنافس على الخير • فاذا كان مثلاً كعب بن الأشرف من نصيب الأوس فليكن سلام بن أبى الحقيق من نصيب الخزرج الذين استأذنوا من المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يسمح لهم بالخروج اليه والتخلص منه وهو فيمن حزب الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذن لهم وفعلوا بعدو الله ما فعل الأوس بكعب بن الأشرف[2] •

إجلاء بنى النضير فى سنة أربع :

فى سنة أربع من الهجرة ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بنى النضير يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر للجوار الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لهما[3] فلما أتاهم رسول الله صلى اله عليه وسلم يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم • نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه • ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنب جدار من بيوتهم قاعد — فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، أحدهم • فقال : أنا لذلك • فصعد ليلقى عليه صخرة ، كما قال ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم •

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء ، بما أراد القوم فقام وخرج راجعا الى المدينة • فلما استلبث النبى صلى الله

---

(١) السيرة ١/٤٣٥ .
(٢) السيرة : ٢/٢٧٣
(٣) انظر السيرة ٢/١٩٠

عليه وسلم أصحابه قاموا فى طلبه ، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخلا المدينة • فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا اليه صلى الله عليه وسلم فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به • وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم •

قال ابن هشام : واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم •

قال ابن اسحاق : ثم سار بالناس حتى نزل بهم •

تنبه أخى المسلم كيف أن المصطفى صلى الله عليه وسلم يجعل دائما معاركه فى أرض الأعداء ، فهو الذى يغزوهم فى عقر دارهم ولا يسمح بالعكس مطلقا •

« قال ابن هشام[1] : وذلك فى شهر ربيع الأول • فحاصرهم ست ليال ونزل تحريم الخمر •

قال ابن اسحاق : فتحصنوا منه فى الحصون » •

تنبه أخى المسلم ، فهذه هى طبيعة اليهود دائما كما وصفهم الله عز وجل فى سورة الحشر التى نزلت كاملة فى هذه المناسبة • قال تعالى[2] : ﴿ لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ •

« فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيها ، فنادوه أن يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ [3] » وقد أنزل الله تعالى ردا على قول اليهود قوله تعالى من سورة الحشر خطابا للمؤمنين[4] : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزى الفاسقين ﴾ والمعنى أن ما فعلتموه أيها المؤمنون بأمر من المصطفى صلى الله عليه

---

(١) السيرة ١٩١/٢ .
(٢) الحشر ، ١٤ .
(٣) السيرة ١٩١/٢ .
(٤) آية ٥٢ .

وسلم من قطع لهذا النوع من النخل أو ترك له قائما على أصوله ليس من باب الفساد كما يزعم اليهود ، انما هو نقمة من الله تعالى أنزلها بهؤلاء اليهـــود .

وكان رهط من بنى عوف بن الخزرج من المنافقين إخوان اليهود ، منهم عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين ووديعة ، ومالك بن أبيّ قوقل ، وسويد وداعس[1] « قد بعثوا الى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فانا لن نســـلمكم ان قوتلتم قاتلنا معكم وان أخرجتم خرجنـــا معكم ، فتربصوا[2] ذلك من نصرهم[3] فلم يفعلوا وقذف (الله تعالى) فى قلوبهم الرعب وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة[4] ففعل . فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نِجاف[5] بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به فخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام[6] » والى ذلك أشارت الآيات المتقدمة من سورة الحشر[7] : قال تعالى : ﴿ سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم . هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب ﴾ .

كما أشارت السورة الكريمة الى خذلان الله تعالى للمنافقين إخوان اليهود . قال تعالى[8] : ﴿ ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون . لئن

---

(١) السيرة ١٩/٢
(٢) أى اليهود .
(٣) من نصر المنافقين .
(٤) أى الا السلاح .
(٥) النجاف ، ككتاب ، خشبة الباب التى يوطأ عليها .
(٦) السيرة ١٩١/٢ .
(٧) الآيات ، ١ ــ ٤ .
(٨) الحشر ، ١١ ــ ١٣ .

أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون • لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ •

هذه هى بعض صفات المنافقين بنص القرآن الكريم ، فهم إخوان لليهود • وقد قال تعالى عن اليهود[1] : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ ولكن المنافقين بنص القرآن الكريم كاذبون فى كل ما يقولون لليهود وما يعطونهم من وعود معسولة لأن الله عز وجل قد خذل كلا من الفريقين •

وهكذا يتبين أن المصطفى صلى الله عليه وسلم — وقد ثبت له غدر اليهود وخيانتهم — لم يفكر عليه الصلاة والسلام مطلقا الا فى القتال وجعل ميدان المعركة فى أرض الأعداء وليس فى أرض المسلمين • كما يتبين أن التعاطف يكون دائما بين اليهود من ناحية وبين المنافقين من ناحية أخرى ، ولكن الله عز وجل لهم بالمرصاد وقد قال تعالى[2] : ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ • ولو فرض أن شيئا غير ذلك قد حدث يوما من الأيام فليعلم المسلمون أن ماحدث بسبب ذنوبهم ، فعليهم أن يعـودوا سريعا الى بارئهم يتوبون اليه ويسـتغفرونه ويركعون له ويسجدون ويعبدونه ويفعلون الخير ويجاهدون فى سبيله حق الجهاد • قال تعالى[3] : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون • وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شـهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ •

يهود بنى قريظة يحالفون الأحزاب :

تمثلت الصورة الجماعية الثالثة لعداوة اليهود للمسلمين فى تحالف بنى قريظة مع الأحزاب من قريش وغطفان ومن اليهما ضد المسلمين • وهزم الله تعـالى الأحزاب وحـده • قال عز من قائل فى سـورة

---

(١) المـائدة ، ٨٢ .
(٢) الروم ٤٧ .
(٣) الحج ٧٧ ، ٧٨

الأحزاب[1] : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا • وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا • وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ •

وكانت غزوة الأحزاب فى شوال من سنة خمس[2] •

ورجع المصطفى صلى الله عليه وسلم الى المدينة صباحا بعد أن هزم الله تعالى الأحزاب • « فلما كانت الظهر ، أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم •••• فقال أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم • فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن الا من طلب القوم • ان الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير الى بنى قريظة فانى عامد اليهم فمزلزل بهم »[3] •

« فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا فأذن فى الناس : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا ببنى قريظة »[4] •

« وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب »[5] •

وقد نزل يهود بنى قريظة أخيرا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله ، انهم موالينا دون الخزرج وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت • وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بنى قريظة قد حاصر بنى قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله اياهم عبد الله بن أبى ابن سلول فوهبهم له — فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟

---

(١) ٢٥ — ٢٧ •
(٢) السيرة ٢/٢١٤ •
(٣) السيرة ٢/٢٣٣ •
(٤) السيرة ٢/٢٣٤ •
(٥) السيرة ٢/٢٣٥ •

قالوا بلى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذاك الى سعد بن معـــاذ[1] .

وكان حكم سعد رضى الله تعالى عنه[2] : « أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء » .

قال ابن اسحق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتـــادة ، عن عبد الرحمن ابن عمـــرو بن ســـــعد بن معـــاذ ، عن علقمـــة بن وقاص الليثى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة »[3] .

ونفذ حكم سعد بن معاذ فى يهود بنى قريظة وأنزل الله تعالى فى أمر الخنـــدق وأمر بنى قريظة من القـــرآن القصـــة فى سورة الأحزاب يذكر فيهـــا ما نزل من البـــلاء ونعمته عليهم وكفـــايتهم ايـــاهم حين فرج ذلك عنهم بعد مقالة من قال من أهل النفاق[4] » . وكان من نصيب بنى قريظة قوله تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا[5] ﴾ والصياصى : الحصون والآطام التى كانوا فيها . والمراد بالأرض التى لم يطأها المسلمون من قبل : أرض خيبر[6] .

المسير الى خيبر وأمر فدك :

« وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم[7] أهل خيبر فى حصنيهم الوطيح والسلالم حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل . وكان رسول الله صلى الله عليه وســـلم قد حـــاز الأموال كلها : الشق ونطاة والكتيبة وجميع حصونهم الا ما كان من ذينك الحصنين . فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا

---

(1) السيرة ٢/٢٣٩ .
(2) السيرة ٢/٢٤٠ .
(3) السيرة ٢/٢٤٠ .
(4) السيرة ٢/٢٤٥ .
(5) الاحزاب ، ٢٦ ، ٢٧ .
(6) السيرة ٢/٢٥٠ .
(7) السيرة ٢/٣٣٧ وانظر ٣٥٣ أمر فدك .

الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ويخلوا له الأموال ففعل .... فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعـاملهم فى الأموال على النصف وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها ، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف **على أنا اذا شـئنا أن نخرجـكم أخرجناكم**[1] ، فصالحه أهل فدك على مثل ذلك ، فكانت خيبر فيئا بين المسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب » .

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] يبعث عبد الله بن رواحة، فيقسم ثمرها ويعدل عليهم فى الخرص . فلما توفى الله نبيه صلى الله عليه وسلم أقرّها أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيديهم على المعاملة التى عاملهم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفى . ثم أقرها عمر رضى الله عنه صدرا من إمارته . ثم بلغ عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى وجعه الذى قبضه الله فيه : لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان . ففحص عمر ذلك حتى بلغه الثبت فأرسل الى يهود فقال : ان الله عز وجل قد أذن فى جلائكم ، قد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان . فمن كان عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود فليأتنى به أنفذه له . ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود فليتجهز للجلاء . فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم .

قال ابن اسحاق : وحدثنى نافع مولى عبد الله بن عمر ، عن عبد الله بن عمر قال : خرجت أنا والزبير والمقداد بن الأسود الى أموالنا بخيبر نتعاهدها ، فلما قدمنا تفرقنا فى أموالنا قال : فعدى علىّ تحت الليل وأنا نائم على فراشى ففدعت[3] يداى من مرفقى، فلما أصبحت استصرخ على صاحبای فأتيانى فسألانى : من صنع هذا بك ؟ فقلت : لا أدرى. قال : فأصلحا من يدى ثم قدما بى على عمر رضى الله عنه فقال : هذا عمل يهود . ثم قام فى الناس خطيبا فقال : أيها الناس . انّ رسول الله

---

(١) انظر صحيح البخارى ١٣١/٩ وقوله (ص) لليهود انى اريد ان اجليكم من هذه الارض .
(٢) السيرة ٣٥٦/٢ .
(٣) فدعت يداه : ازيلت مفاصلها عن اماكنها .

صلى الله عليه وسلم كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم اذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم مع غدوهم على الأنصارى قبله ، لا نشك أنهم أصحابه ، ليس لنا هناك عدو غيرهم، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به فانى مخرج يهود فأخرجهم » .

وكان اخراج عمر رضى الله تعالى عنه ليهود خيبر سنة عشرين للهجرة[1] وفيها أجلى عمر أيضا يهود نجران الى الكوفة .

مما سبق تبينت تفاصيل مظهر واحد من مظاهر انتقام الله تعالى من بنى اسرائيل على يدى حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين وصحابته وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن علاج القوم اخراجهم عنوة . قال تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ . صدق الله العظيم .

موعظة وذكرى :

تبينا أن انتقام الله تعالى من بنى اسرائيل شديد ، جزاء افسادهم فى الأرض وتعاليهم على عباد الله تعالى تعاليا كبيرا ، سواء فى ذلك المرتان اللتان نص عليهما كل من التوراة والقرآن ، أو المرات التالية وما أكثرها والتى أشار اليها قوله تعالى فى الاسراء خطابا لبنى اسرائيل: ﴿ وان عدتم عدنا ﴾ والمعنى ان عدتم الى الافساد عدنا الى الانتقام . وهذا القول يعنى الاحتمال المستمر لعودة بنى اسرائيل للإفساد فى الأرض والتعالى على عباد الله تعالى . فما معنى انتقام الله تعالى المستمر من بنى اسرائيل ؟ معناه أنهم مسئولون عن كل صغيرة وكبيرة يعملونها . ولماذا كان بنو اسرائيل محل انتقام الله تعالى ، بأكثر من سواهم كما يبدو من القول فى سورة الاسراء : « وان عدتم عدنا » وكما يبدو من المواضع العديدة المتفرقة فى القرآن الكريم ؟ والحقيقة أن الجواب على السؤال الأخير ذو شقين . الشق الأول عائد الى طبيعة هذا الجنس من الناس العجيب . انه حينما يكون فى غير مكان القوة

---

(١) تاريخ ابن الاثير ، حوادث سنة عشرين ، ٥٦٩/٢ ، ٥٧٠ بيروت ١٣٨٥ هـ ٦٥ م .

والسلطة ، فليس له نظير فى القبول أن يسام خسفا وذلا وهوانا • أما حينما يكون له شىء من قدرة وقوة فليس لتعاليه حدود وغطرسته نهاية • والى التعالى والغطرسة أشار قوله تعالى فى الاسراء خطابا لبنى اسرائيل : وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا • وأما استمراء القوم للذل والهوان فى حالة الضعف فما أكثر الأدلة على ذلك من التاريخ ومن الواقع[1] والشق الثانى عائد الى كون القوم أهل كتاب سماوى ، هو التوراة التى أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام هذا بالإضافة الى أن نصيب موسى عليه السلام كبير من المعجزات والخوارق المادية • وحينما نقارن بين الكتاب السماوى من ناحية وبين المعجزات الحسية والخوارق المادية من ناحية أخرى ، فان أول ما يلفت انتباهنا أن الكتاب السماوى من سماته أن يبقى كى تنتفع به وتهتدى بنوره أجيال وأجيال ، بينما المعجزات الحسية والخوارق المادية مقصورة على جيل واحد من الناس بل على بعض ذلك الجيل •

وعلى الرغم من أن رب العزة لم يتكفل بحفظ التوراة تكفله بحفظ القرآن الكريم ، الا أن الكتاب السماوى ، يظل قادرا ، مع عبث العابثين على أن يتضمن بعض مواد الأصل •

فاذا قارنا بين أتباع النبى الذى كانت آيته عبارة عن المعجزات الحسية والخوارق المادية ، وبين أتباع النبى الذى أوتى كتابا سماويا ، فانا نتبين أن الأتباع الأولين سرعان ما يبتعدون حثيثا عن تعاليم السماء حتى يأتى الوقت الذى لا يكاد يبقى لديهم شىء من تعاليم ذلك النبى الكريم ، وعندئذ لا نكاد نجد فرقا بين هؤلاء وبين من نسمى من الناس بأهل الفترة ، وهم الذين لم يبعث اليهم رسول فلا علم لهم بتعاليم السماء • أما الأتباع الآخرون ، فانا لا نستطيع أن نقول عنهم كل ذلك ، لأن الكتاب السماوى — كما عرفنا — أكثر قدرة على البقاء رغم الابتعاد — ونستثنى القرآن الكريم الذى تكفل بحفظه رب العزة — بمرور الأيام عن صورته التى كان عليها وقت الايحاء به • وكون الكتاب السماوى موجودا ، يعنى أن أهله مسئولون عن تطبيقهم تعاليمه أو عدم التطبيق • ومعروف أن القرآن الكريم ألزم كلا من اليهود والنصارى تطبيق تعاليم كل من التوراة والانجيل •

---

(١) انظر على سبيل المثال ماكتب الجاحظ عن اليهود فى كتاب الحيوان ٦/٧١ ، ٧٢ •

وهل طبّق كل من اليهود والنصارى تعاليم كل من التوراة والانجيل ؟

اليك الجواب من القرآن الكريم . قال تعالى فى سورة الحديد[1] : خطابا للمؤمنين محذرا لهم من أن يقفوا من القرآن الكريم موقف أهل الكتاب من التوراة والانجيل : ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾ .

ان كلا من اليهود والنصارى ، بنص القرآن الكريم ، وكما هو ثابت من الواقع المشاهد ، قد أخذوا يبتعدون عن السير فى الخط الذى أمرهم كتابهم السماوى بالسير فيه ، وأتى الوقت الذى قست فيه قلوبهم فلم تعد تلين ولا تخشع نفوسهم لأى من الكتابين السماويين . وكانت نتيجة كل ذلك أن كثيرا منهم غـــدوا فاسقين . وما معنى أن يفســـق أهل الكتاب السماوى ؟ معناه أنهم استحقوا غضب الله تعالى واستوجبوا نقمته ، والى ذلك أشار قوله تعالى فى سورة الاسراء : ﴿واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ وقوله تعالى : ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا﴾ .

وفيما يتصل ببنى إسرائيل نستطيع أن نقول إنّ إفسادهم فى الأرض وتعاليهم على عباد الله تعالى نتيجة طبيعية لابتعادهم عن اتباع تعاليم السماء ، فيستحقون انتقام الله تعالى كل مرة يفســـدون فى الأرض ويتعالون على عباد الله تعالى .

والعجيب فى أمر القوم هو أنهم لا يستفيدون مطلقا من الدروس القاسية التى يلقّنونها كل مرة يفسدون فى الأرض ويتعالون علوا كبيرا .

أما وقد تبينا غضب الله تعالى وانتقامه من اتباع الكتب السماوية الذين انصرفوا عن اتباع تعاليم الســـماء واتبعوا أهواءهم ممثلين فى بنى إسرائيل الذين انتقم الله تعالى منهم كرات ومرات ، وسينتقم منهم عز وجل كل مرة يفسدون فى الأرض ويتعالون على عباد الله تعالى . فما موقف العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم وبعث فيهم خاتم

---

(١) آية ١٦ .

الأنبياء والمرسلين من هذه الدروس ، وما موقف المسلمين أيضا من هذه الدروس وهم الذين قد رشحوا لكى يكونوا خير أمة أخرجت للناس • ما موقف العرب والمسلمين وهم أهل القرآن الكريم الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الكتاب الذى تكفل رب العزة بحفظه الى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ؟ إذا كان انتقام الله تعالى كبيرا من أهل الكتاب السماوى الذى لم يتكفل رب العزة بحفظه ، فأى انتقام خليق به أن يكون من نصيب أهل القرآن الكريم فيما لو فرض أنهم انصرفوا عن القرآن الكريم وهجروه وصح بشأنهم قوله تعالى على لسان حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة[1] ﴿ وقال الرسول يا رب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ ولم ينفذوا قوله صلى الله عليه وسلم من خطبته بحجة الوداع : « وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه[2] » •

لا شك أن المسلمين فيما لو انصرفوا عن القرآن الكريم والحديث الشريف ولم يطبقوا تعاليم القرآن الكريم والسنة المطهرة ، فانهم خليقون بأن يكون عقاب الله تعالى لهم شديدا وانتقامه كبيرا • أما اذا طبقوا تعاليم السماء ، فانهم خليقون بأن يحقق الله تعالى وعده الذى جاء فى قوله عز من قائل فى سورة النور[3] : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ •

قال تعالى فى سورة فاطر[4] : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد • ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد • وما ذلك على الله بعزيز ﴾ •

وقال تعالى فى سورة محمد[5] خطابا للمؤمنين خاصة : ﴿ ها أنتم

---

(١) الفرقان ، ٣٠ •
(٢) السيرة ٦٠٤/٢ •
(٣) آية ٥٥ •
(٤) آيات ١٥ — ١٧
(٥) آية ٣٨ •

هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

أما وقد تبينا أن انتقام الله تعالى من بنى اسرائيل كل مرة يفسدون فيها فى الأرض ويتعالون على عباد الله تعالى عائد لكونهم أهل كتاب مسئولين عن مدى سيرهم وفق الهدى الذى آتاه الله تعالى موسى عليه السلام والكتاب الذى أورثهم الله تعالى اياه ، وانّ فسادهم وتعاليهم يعنيان أنهم لا يسيرون وفق تعاليم الهدى الذى جعله الله تعالى نصيبا لهم ، كما تبينا أن من أهداف تسجيل سورة الاسراء لانتقام الله تعالى مرتين متعاقبتين ابتداءً من بنى اسرائيل ، وانتقامه عز وجل منهم كل مرة يعودون فيها للافساد والتعالى ، أن تنبه أهل القرآن الكريم الى ضرورة التمشى وفق تعاليمه والاهتداء بهديه ، الا يكن ذلك منهم ، يفسدوا فى الأرض ويتعالوا ويحكموا أهواءهم وينتقم الله تعالى منهم كما انتقم من سواهم . بل انّ مسئولية أهل القرآن الكريم أكبر من مسئولية سواهم وبالتالى فان انصرافهم عن التعاليم السماوية يعنى أن غضب الله تعالى عليهم أشد وانتقامه أعظم ، لأن الله عز وجل قد تكفل بحفظ القرآن الكريم ولم يتكفل بحفظ أى كتاب سماوى . قال عز من قائل[1] : ﴿ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾ هذا الى أن بين أيديهم سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم التى تعتبر مبينة للقرآن الكريم . فهنيئا لأهل القرآن الكريم ما داموا مطبقين لتعاليمه وتعاليم السنة المطهرة ، وويلا لهم ان هم اتخذوا هذا القرآن مهجورا والسنة المطهرة وراءهم ظهريا .

أما وقد تبين كل ذلك ، فمن الطبيعى بعد أن تتحدث سورة الاسراء عن التوراة التى آتاها الله تعالى موسى عليه السلام وجعلها هدى لبنى اسرائيل ، أن تتحدث عن القرآن الكريم ، كتاب الله تعالى الحكيم ونوره المبين الذى يهدى الى الصراط المستقيم و « الناسخ لحكم التوراة وكل كتاب الهى »[2] .

---

(١) الحجر ، ٩ .
(٢) البحر المحيط ٦/١٣ .

(٣)

القـــــــــرآن
يهدى للتى هى أقوم

قال تعالى : ﴿ ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا • وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾•

كان الحديث عن قوم موسى عليه السلام محمّلا لهم مسئولية التمشى بما جاء فى الكتاب الذى أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام ، وإن الحديث عن القرآن الكريم مقرون بتحميل أمة محمد صلى الله عليه وسلم مسئوليتهم الكبرى تجاه آخر كتاب سماوى أنزله عز وجل على المصطفى صلى الله عليه وسلم • لذا فان الحديث عن القرآن الكريم جاء متضمنا موقف المؤمنين به ، المصدقين للرسول صلى الله عليه وسلم ، وموقف الكافرين به ، غير المصدقين للرسول صلى الله عليه وسلم •

وينبغى أن نقرر حقيقة مهمة هى أن النظرة الى كل من الفريقين تتركز على سلوك كل من الفريقين تبعا لايمانهم أو كفرهم • ومن هنا يمكن القول ، وسيتضح ذلك بدرجة أكبر ، أن هذه السورة الكريمة تعنى عناية فائقة بالسلوك الانسانى ، فهى ترشد الى طريق الخير والفلاح ، وتحذر من طريق الشر والضلال • قال تعالى : ﴿ ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾ •

وواضـــح أن الآيتين الكريمتين تربطان تماما بين عمـــل الانسان فى الدنيا والثواب أو العقاب الذى ينتظره فى الآخرة بعد البعث • وذلك يعنى أن النظرة تستمر متابعة للانسان منذ أن يقع تحت التكليف الى أن يحاسب يوم القيامة فيثاب أو يعاقب وفق أعماله فى الحياة الدنيا • فالنظرة طويلة وشاملة لحياة الإنسان من بدايتها الى نهايتها إلى ما يكون

من نصيبه فى الآخرة . وهى نظرة تحبب فى الخير وتحذر من الشر ؛ ووسيلتها هذه المرة اعطاء صورتين متقابلتين يبدو معها الخير فى أبهى حلله والشر فى أقبح صـــوره .

وبتأملنا لأولى الآيتين : ﴿ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا﴾ يتضح أنها لا تعين صراحة تلك التى هى أقوم والتى يهدى اليها القرآن الكريم . ويجتهد الذهن فى تعيين تلك التى هى أقوم ، أهى الطريقة التى هى أقوم من كل طريقة أخرى ، أم أنها الحال التى هى أقوم الى غير ذلك . ومهما اجتهد الذهن وسبح الخيال ، فان المرء ينتهى كل مرة الى أن الحذف هنا هو الأحسن . وهذا الشىء المحذوف يكتسب بهاءه ورونقه من أن القرآن الكريم يهدى اليه ، وأن الذين يسيرون وفق هذه الهداية هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات وبناءً على ذلك لهم أجر كبير يوم القيامة . فالفكر اذن يستمتع فى البحث عن ذلك الشىء المحـــذوف ، والخيال يسبح محاولا تعيينه . ويكون الخير والانشراح رفيقين لكل من الفكر والخيال .

أما الذين لا يؤمنـــون بالآخرة ولا يصـــدقون بالرســـول العظيم ولا يطبقون تعاليم الاسلام ، فأولئك يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنـــار مثوى لهم .

وحينما تعبر الآية الثانية عن الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة ، فذلك معناه العناية بقضية البعث بعد الموت ، وهى عناية نتبينها فى أولى الآيتين الكريمتين أيضـــا . وسيتبين أن قضـــية البعث بعد الموت من الموضوعات التى أولتها السورة الكريمة عناية ملحوظة .

وحينما تتحدث الآيتان الكريمتان عن المؤمنين والكافرين ، فذلك يعنى أننا بصدد مجموعتين من الناس مختلفتين أو متقابلتين فى الصفات . وسنتبين أن ظاهرة التقابل أو الاختلاف فى الصفات تطبع كل الآيات التالية حتى مجموعة آيات الحكمة ، وأن هدف القرآن الكريم ، آية الله تعالى الكبرى الخالدة ، إخراج الانسان من ظلمات الشرك الى نور التوحيد ، والأخذ بيده كى يسير فى هذه الحياة فى الصراط المستقيم

كي يجمع بين خيرى الدنيا والآخرة ، لذا كانت الآيات الكريمة التى قلنا إن ظاهرة التقابل أو الاختلاف فى الصفات تطبعها بطابعها ، تتحدث عن هذا الانسان شاملة كل المراحل التى يمر بها هذا الانسان منذ أن يقع تحت التـــكليف الى أن يثاب أو يعاقب يوم القيـــامة عقب البعث والنشور • وسنتبين أن آيات الحكمة ذاتها تهدف الى تقويم سلوك هذا الانسان كى يجمع بين خيرى الدنيا والآخرة •

(٤)

ظاهـــرة التقابـــل والاختلاف فى الصفات

قال تعالى : ﴿ ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا • اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا • واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا • وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا • من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا • ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا • كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا • انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضـــيلا ﴾ •

الإنسان عجول يدعو بالخـــير وبالشر :

قال تعالى : ﴿ ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانســـان عجولا ﴾ انّ من الصفات الغالبة على الانسان العجلة • ومن مظاهر ذلك أنه فى الوقت الذى يدعو فيه بالخير لنفسه وأهله وما يهتم لصلاحه كالمـــال مثلا ، فانه يدعو ، حينما يفقد السيطرة على نفسه ، بالشر على الذى اعتاد أن يدعو له من قبل بالخير • وهذه حقيقة يلحظها كل واحد منـــا •

وحينما يبحث الإنسان عن السبب وراء ذلك ، فانه يجـــد الجواب الشافى فى الصفة التى يصف الله عز وجل بها الإنسان الذى خلقه وعلم

ما توسوس به نفسه ، هذه الصفة هى أن الانسان عجول • جاء فى الآية : ﴿ وكان الانسان عجولا ﴾ ومعروف أن كان تنسحب على كل الأزمنة • ولو استعرض الواحد منا فترة قصيرة جدا مرت به ، فانه يتبين أن صفة العجلة جزء من كيانه ولها القدرة الكافية على توجيهه فى هذه الحياة وجهة معينة •

وفى مقدور الواحد منا أن يرقى نشزا من الأرض ، ملقيا نظرة مسترخية على الغادين والرائحين من الناس • كى ينتهى الى أن الانسان هو ذلك الذى وصفه عالم السر وأخفى : « وكان الانسان عجولا » فليست صفة العجلة وقفا على دعاء الانسان بالشر دعاءه بالخير ، بل انها جزء لا يتجزأ من كيان الانسان •

وهنا نجد أنفسنا مدفوعين للانتقال الى مختلف الكوابح لصفة العجلة فى الانسان • ويأتى الصبر الذى دعا اليه ديننا الحنيف وحث عليه فى المقدمة • وكثيرة هى الاشارات فى القرآن الكريم والسنة المطهرة الى الصبر والدعوة اليه ، بل الأمر به والنهى عن الجزع والاندفاع • ولا يملك الانسان الا أن يتلو بنفس ملؤها السعادة والانشراح قوله تعالى[1] : ﴿ ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ﴾ وقوله تعالى[2]: ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ﴾ •

آيتا الليل والنهار :

قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾ •

لقد عبر عن سواد الليل بالقول : ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ والمراد تبيين طبيعة الليل المميزة له وهو أنه لا يرى فيه المبصرون • ونود أن نقف قليلا عند الاختلاف الواضح فى طريقة التعبير عن الآيتين المختلفتين ،

---

(١) طه ، ١١٥ .
(٢) ق ، ١٦ .

آية الليل وآية النهار • لقد جاء عن آية الليل قوله تعالى : ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ وجاء عن آية النهار قوله تعالى : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ •

إن نقطة الارتكاز فى هذا القول : ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ هى عملية المحو لليل ، أو سواد هذه الآية الدالة على قدرته عز وجل • ومن هنا ابتدأت الاشارة الى محور هذه الآية الدالة على القدرة الالهية فقيل : « فمحونا » •

ولو فرض أن الإشارة الى عملية المحو هذه تأخرت فكان هناك توافق فى طريقة التعبير عن الآيتين فقيل عن آية الليل قياسا على آية النهار فجعلنا آية الليل ممحوة • لتبينا فى هذا القول الذى جئنا به نحن ، بشأن الصفتين المختلفين عملية ابتزاز من الواحدة للأخرى ، تؤدى الى أن يسلب من الأولى بياضها الناصع ومن الأخرى سوادها الحالك • أما البياض الناصع فهو الذى يرتبط عادة بلفظة « آية » اذ إنها بمعنى العلامة الواضحة • وأما السواد الحالك فهو الذى يرتبط عادة بلفظة « الليل » • وأما آلة الابتزاز • فهى القول الذى جئنا به اذ يحدث لبس لسماع لفظة « ممحوة » ويتمثل ذلك فى هذا السؤال الحتمى : هل المراد وصف الآية بأنها علامة واضحة ، فهذا هو الذى يراد فى العادة بلفظة « آية » أم أنه أريد لها ألا تكون واضحة فجىء بلفظة ممحوة ؟

والمتأمل لطريقة التعبير عن كل من آية الليل والنهار ، يتبين أن قوله تعالى فى تبيين طبيعة الليل : « فمحونا آية الليل » يتمشى مع السلبية الغالبة على الليل ، فقد جعله الله تعالى سكنا ولباسا ، ومن ثم فإن التعبير فى الآية الكريمة عن الليل ، لا ينسب الى الليل أى عمل ولا يلحق به أى دور ايجابى بشأن اللون الذى من نصيبه والذى عبر عنه بالقول : ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ • والمراد أن هذه هى الصفة الغالبة على الليل بالرغم من أن القمر ، وبخاصة حينما يكون بدرا يضفى على الليل لونا الى لونه • ولكن ذلك ليس دائما دوام فعل الشمس ولا قويا قوتها • وإذا كان القمر عاجزا عن أن يغير من لون الليل الأصلى فالنجوم أشد عجزا • وكل ذلك مبين لروعة التعبير القرآنى عن طبيعة الليل • قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ﴾ •

واذا كنا تبينا أن التعبير القرآنى يشى بسكون الليل وهدوئه بإيقاف الليل الممحو موقفا سلبيا ، فان التعبير القرآنى وراء ذلك ينطق بحركة النهار وإيجابيته وصخبه ، قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ . فالتعبير القرآنى يظهر النهار مبصرا . وقد جرت العادة بأن يكون الإبصار بالعينين . فكأن القرآن الكريم يظهر النهار فى مظهر المخلوق الذى يبصر بكلتا عينيه . وإن الإبصار دليل على حياة ذلك الكائن وحركته .

فاذا نظرنا الى هاتين الآيتين من زاوية تقابلهما وفى ضوء ما تبين لنا من سكون الليل وهدوئه ، استطعنا أن نستفيد من ظاهرة التقابل هذه صورة أوضح بشأن كل من الليل والنهار . وبالتالى يبدو الليل أكثر سكونا وهدوءا وملاءمة لأن يكون لباسا ، ويبدو النهار أكثر حركة وضجيجا وملاءمة لأن يكون معاشا وكسبا .

وإنا لنكاد نتبين من التعبير القرآنى عينى النهار وقد أخذ جفناهما العاليان ينزلان على ما سفلا . وتتوالى عمليتا الانطباق والانفتاح فى عينى النهار الدالتين على ضربات قلبه المنتظمة . كل ذلك الجمال والروعة ، يبدوان من اسناد عملية الإبصار الى النهار وإذا به مخلوقا يتدفق نشاطا وحيوية . حقا إن النشاط والحيوية ليسا إلا للخلائق ، ولكن لولا النهار لما كان النشاط والحيوية بدليل ما اتسمت به هذه الخلائق ذاتها ليلا من سكون وهدوء . ومن هنا لطفت كل من سلبية الليل وإيجابية النهار . ما أروع التعبير القرآنى وأجله اذ أوحى بكل هذه المعانى وبكثير غيرها لما نتبين فى تلك الكلمات القلائل .

ونحب أن نعقب على ما مضى بالإشارة الى أمرين . **الأمر الأول** هو أنه عز وجل الذى جعل الليل والنهار آيتين دالتين على قدرته ، شاءت إرادته أن يتحقق للخلائق باختلاف الليل والنهار صالحها . قال تعالى فى سورة النبأ[1] : ﴿ وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ﴾ . وحيث إن حياة كل مخلوق تتكون من راحة وعمل والليل مناسب للراحة والنهار مناسب للعمل . فاننا لا نلبث أن نندفع مفكرين فى طول كل من الليل والنهار اللذين اصطلحنا على توزيعهما الى أربع وعشرين ساعة .

---

(١) آية ١٠ ، ١١ .

وهنا نتبين أن لكل حظه الموفور على مدار السنة ، ونفعه الجلى لكل الخلائق • ولا يملك الانسان المنصف الا أن يجد شفاء لغليله فى ترتيله بخشوع لقوله تعالى فى سورة القصص[1] : ﴿ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون • قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ •

فكل من الليل والنهار فى هذا الطول ، يفى بحاجة كل مخلوق من الراحة أو العمل • **والأمر الثانى** هو أن الاختلاف فى طريقة التعبير عن هاتين الآيتين المختلفتين ، وما أدى اليه من المعانى الغزيرة الجليلة ، يعنى أن المعانى هى التى يراد فى القرآن الكريم نقلها ، ومن ثم رتبت الألفاظ وفق المعانى وليس العكس • وهذا النقل الكامل والدائم للمعانى ، هو السر فى إعجاز القرآن الكريم الذى يلوح غضا طريا دائما ، يرضى العقل بفصوص حكمه ، والنفس بتدفق مائه وكثرة رونقه •

وننتقل الى ما جاء فى الآية الكريمة من فوائد لكل من الليل والنهار ، قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ •

إن قوله تعالى : ﴿ لتبتغوا فضلا من ربكم ﴾ يتعلق فى الدرجة الأولى بالنهار لأن نسبة الذين يعملون ليلا ابتغاء فضل من ربهم قليلة بالقياس الى العاملين الكادحين نهارا • وان قوله تعالى : ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ يتعلق فى الدرجة الأولى بالليل • قال أبو حيان فى البحر المحيط[2] بشأن علم الحساب للشهور والأيام والساعات : « ومعرفة ذلك فى الشرع إنما هو من جهة آية الليل لا من جهة آية النهار » ونضيف الى ما قال أبو حيان بأن علم الحساب يمكن أن يتم من جهة النهار أيضا أعنى الشمس • فكما أن

---

(١) آيات ، ٧١ — ٧٣ .
(٢) ١٥/٦ .

هناك مثلا سنة قمرية هناك سنة شمسية • ومع ذلك فالاعتماد الأكبر على آية الليل تماما كما كان اعتماد أكثر العباد على النهار فى ابتغاء فضل من ربهم •

من كل ما سبق يتضح أنه جاء فى الآية الكريمة حديث عن فوائد كل من آية الليل وآية النهار • والسؤال الذى نطرحه الآن هو : لماذا لم يتم فى الآية الكريمة ترتيب كل من الفائدتين وفق ترتيب كل من آيتى الليل والنهار ؟ لماذا جاءت الاشارة الى فائدة النهار أولا مع أن الإشارة أولا الى الليل ؟ وللجواب على ذلك نقول : تبينا أن تعبير الآية الكريمة عن آية الليل وذلك فى قوله تعالى : ﴿ فمحونا آية الليل ﴾ قد أظهر الموقف السلبى لليل • أو هكذا بدا الليل • وهى سلبية تنم عن هدوء الليل وسكونه وكونه لباسا للخلائق وكون النوم فيه سباتا • كما تبينا أن تعبير الآية الكريمة عن آية النهار ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ قد أظهر الموقف الايجابى للنهار ، أو هكذا بدا النهار مبصرا بكلتا عينيه يطبقهما ويفتحهما • فكأن الآية الكريمة حينما تتحدث أولا عما للنهار من فوائد ، تكون مراعية هذه المرة لإيجابية النهار التى جعلت فائدته تتقدم فى الذكر • ويضاف الى ذلك أننا حينما نتأمل كلا من الفائدة المكتسبة من النهار والفائدة المكتسبة من الليل ، فانه يتبين أن فائدة النهار معمقة لإيجابيته ، اذ أنها عبارة عن فائدة حتمية ينبغى لكل الخلائق أن ينالوا قسطا منها ولا خيار لهم فى ذلك • أعنى الضرب فى الأرض ابتغاء فضل الله تعالى • ومن ثم فالناس يشعرون بقيمة هذه الفائدة وحتميتها • بينما يتبين أن إحساس الناس بحاجتهم الى فائدة آية الليل وقيمتها ، يلى احساسهم بالحاجة الى الطعام والشراب وكل ما هو ضرورى • أضف الى ذلك أنه اذا كان كل الناس ينبغى عليهم أن يأخذوا بنصيبهم من الضرب فى الأرض ابتغاء فضل الله تعالى ، فليس ينبغى على كل الناس أن يأخذوا بنصيبهم من العلم بعدد السنين والحساب • لكل ما سبق كان تقديم الإشارة الى فائدة النهار أمرا حيويا وضروريا كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ •

وقد يقول قائل : ما دام أن تقديم فائدة النهار على فائدة الليل أمر حتمى كما جاء فى الآية الكريمة ، فلماذا لم تتقدم بناءً على ذلك

الإشارة الى آية النهـــار على آية الليل ، فبهذا يتحقق الترتيب فى الموضعين من الآية . والجواب على ذلك هو أننا نعرف تماما فى العديد من الآيات القرآنية أن الليل هو الأصل وأن النهار طارىء عليه . جاء على سبيل المثال فى سورة النبأ[1] قوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليـــل لباسا وجعلنا النهار معاشا ﴾ وفى سورة يس قوله تعالى[2] : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ﴾ فكأن آية الإسراء حينما تقدم الليل على النهار ، انما تقدم الأصل وتؤخر الفرع[3] . فكل منهما جاء فى مكانه الطبيعى من الآية الكريمة .

ويلاحظ أن ثمة نوعا من فرق بين الجملة التى تستعمل بشأن السعى وراء لقمة العيش ، والجملة التى تستعمل بشأن عدد السنين والحساب فبما أن الواجب يحتم على الإنسان أن يسعى وراء لقمة العيش ، وأن فى إمكان الانسان أن يتحقق طلبه تمشيا مع قوله تعالى[4] : ﴿ وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾ . لذلك جاء فى هذه المناسبة الجملة التى تتضمن واجب الانسان أن يسعى وإمكانية حصوله على مايطلب ويبتغى ، أعنى قوله تعالى : « لتبتغوا » الذى يفهم منه حث الانسان على أن يعمل ويكون إيجابيا . وكل ذلك يتمشى مع إيجابية النهار والتى هى فى الحقيقة إيجابية الخلائق إلا أن النهار سبب مباشر فيها .

وبما أن حصول الإنسان على المعرفة بعدد السنين وبالحساب ، انما يتم عن طريق مراقبته عن كثب لحركة الكواكب التى جعل الله تعالى ذلك من فوائدها ، وبما أن موقف الإنسان من هذه الكواكب لا يتخطى موقف المراقب لمـــا يقع تحت بصره ، المتجاوب معـــه ، المنتفع به ، المقيد لمـــا انتهى اليه من علم بعدد السنين وبالحساب عن طريق الكواكب السابحة فى الأفلاك . لذلك جاء فى هذه المناســبة الجملة المقررة لطبيعة موقف الإنسان من هذه الكواكب ، أعنى قوله تعالى : « ولتعلموا » وهذا يتمشى تماما مع سلبية الليل بالقياس الى النهـــار .

---

(١) آية ، ١٠ ، ١١ .
(٢) آية ، ٣٧
(٣) تكلمنا عن هذه المسألة فى كتاب تأملات فى سورة يس تحت عنوان آية الزمان ص ٤٦
(٤) هود ، ٦ .

وإذا نظرنا الى كل من لفظتى السنين والحساب ، فالذى يلاحظ بشأن لفظة السنين أن المفرد يشكل من حيث الوحدة الزمنية المستقلة ، أكبر كتلة بارزة • كما يلاحظ أن لفظة الحساب تتسع فتشمل ما زاد على السنين ، وتضيق فتشمل ما نقص عنها • فكأن التعبير القرآنى راعى من ناحية فى استعمال لفظة السنين ، أكبر كتلة زمنية مفردة تستحق أن تراعى قبل سواها • ويتضح ذلك من وضعنا مكان السنين لفظة الشهور أو الأسابيع أو الأيام ، فانا نحس دائما بأنا لم نقف عند الحد الواضح المعالم الذى يقع تحته كل وحدة زمنيـــة مفردة والذى يتكون ما علاه منه بالضرورة كالعشرات من السنين والقرون وما الى ذلك •

وقد جانس لفظه السنين ، بناءً على ذلك ، العد لهـــا • قال تعالى : ﴿ لتعلموا عدد السنين ﴾ لقد جاءت لفظة السنين التى لا يمكن تجاوزها ، وجاءت لفظة العد التى ترضى فى أنفسنا ما استقر فيها من أن حقيقة العد إنما تكون لمـــا اتضح حجمه وأمكن عده •

وكأنّ التعبـــير القرآنى راعى من ناحية أخرى فى اســـتعمال لفظة الحساب كل ما نقص عن السنة وكل ما زاد عليها أيضا • وكل ذلك يعنى دلالة التعبير القرآنى على الزمن كله وشموله له •

ونود أن نقف عند قوله تعالى : ﴿ لتبتغوا فضلا من ربكم ﴾ الذى يفهم منه حث كل إنسان على أن يعمل ويكدح ، ويكسب لقمة عيشه بالطرق الكثيرة المشروعة • ومعروف أن كل ما يقوم به الانسان من أعمال صالحة يريد بها وجه ربه عز وجل ، بما فى ذلك أن يكدح وراء لقمة العيش ، فإنه مثاب على ذلك • ويدخل كل ذلك من باب عبادة الله تعالى فى الإسلام تطبيقا لقوله تعالى[1] : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ كما يفهم من هذا القول : « لتبتغوا فضـــلا من ربكم » كيف ينبغى أن تكون العلاقة متينة دائما بين العبد وربه • فواجب العبد الذى يكدح وراء لقمة العيش مثلا ، وهو يريد من ذلك رضا ربه عز وجل ، أن يوقن بأن كل ما يحصل عليه من رزق ، إنما هو فضل من الله تعالى عليه وامتنان ، وأن يوقن بأن ما حصل عليه من

---

(١) الذاريات ، ٥٦ .

رزق ، ليس له من دور فى ذلك سوى أنه وفق بعونه تعالى للانتفاع مما تفضل به بارئه عليه من قدرة على العمل فالكسب ، وأن يوقن بأنه الفضل الكبير من الله تعالى هو الذى جعل الحصول على الرزق سهلا ميسورا • فلو فرض أن ثمة القدرة على الكسب ، بينما لم تشأ ارادة الله تعالى أن يكون الحصـــول على الرزق سهلا ، لمـــا نجح الإنسان فى الحصول على أدنى القوت • والشىء ذاته يقال فيما لو فرض أن انعدمت القـــدرة على الكسب • فما الفـــائدة من إمكانية الكسب والحصول عليه ، ولكنه البر الرحيم الذى تكفل لكل دابة فى الأرض بالرزق •

ومن العجيب الذى سمعنا فى هذا الشأن[1] أن ثمة حيوانا أعمى لا يبصر ، ، أصم لا يسمع ، بليدا لا يتصرف ، أبله لا يعرف • فإذا أحس بالحـــاجة للطعـــام فتـــح فاه فجـــاءه رزقه رغدا مما يطير ، وليس عليه سوى أن يغلق فاه !

ونســـتطيع أن نقول إذن ، إن هـــذا القول فى الآية الكريمة : « لتبتغوا فضلا من ربكم » مسعف للإنسان على أن يتحقق فيه قوله تعالى من سورة النحل[2] ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهـــو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ •

واذا كان فى هذا القول : ﴿ لتبتغوا فضلا من ربـــكم ﴾ حث لكل إنسان على أن يعمل ، ففى قوله تعالى عطفا على ذلك : ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ حث على العلم • ويلاحظ أن هذا الفرع من العلم الذى تشير اليه الآية القرآنية ليس دينيا صرفا • ومع ذلك فإن الاسلام قد حث على طلب كل علم نافع • وحينما يريد الانسان بعلمه وجه ربه الأعلى فانه مثاب على ذلك • وليس ثمة من دين حث على العلم وأشاد به وبالعلماء والمتعلمين كما فعل الاسلام • ويتضح ذلك من تأملنا لأول ما نزل من القرآن الكريم على المصطفى صلى الله عليه وسلم • قال تعالى[3] : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان

---

(١) الحيوان ، ١٦٢/٢ واسم هذا الحيوان الخلد بضم الخاء وقد تفتح وتكسر
(٢) آية ، ٩٧ .
(٣) العلق ، ١ ــ ٥ .

من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ﴾ . فكأن الآية الكريمة من سورة الاسراء تدعو الى كل من العمل والعلم الصالحين ، وحينما يريد الانسان بذلك وجه ربه الأعلى فانه مثـــاب .

فاذا تحولنا الى الجزئية الأخيرة فى الآية الكريمة : ﴿ وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾ ، ومعناها كما هو معروف ، كل ما تحتاجون اليه وتستقيم به أحوالكم فى الدنيا والآخرة قد بيناه لكم فى وضوح وتفصيل تامين ، فانه يتبين أن لكل من الدنيا والآخرة نصيبا فى الآية . وهذا يعنى أننا لا زلنا مع ظاهرة التقابل فى المعانى والاختلاف فى الصفات التى تتسم بها هذه المجموعة من الآيات ، ومنها هذه الآية الكريمة .

وتبقى لنا ملاحظة أخيرة حول هذه الآية الكريمة هى اعتبار الآية الليل والنهار بالذات آيتين دون غيرهما من الوحدات الزمانية فلماذا ؟ والجواب على ذلك أن إحساس الناس بالليل والنهار فطرى ، وتريد الآية الكريمة تنبيه الناس الى قدرة القادر على كل شىء ، عن طريق هاتين الآيتين اللتين يعرفهما الناس جيدا ولكنهم بحاجة الى تأملهما وتدبرهما فما أعظمهما من آيتين هما بمنزلة الوعاء الزمانى للخلائق ، وهما المحور الذى تشد اليه وتقاس بالنسبة له كل الوحدات الزمانية التى تقل عنه ابتداءً من الثانية والتى تزيد عنه الى ماشاء الله تعالى من السنين والقرون . فهل الثانية الا جزء من الليل أو النهار ، وهل السنة الا مجموعة من الأيام ، والقرن الا مجموعة من السنين . قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾ .

المحسن والمسىء مسئولان :

حيث إن فى سورة الاسراء عناية كبيرة بالسلوك الإنسانى ، وتحميلا لكل فرد مسئوليته كاملة ، فانا نود أن نتحدث باقتضاب عن خط سير الإنسان ، مستأنسين فى ذلك بآيات الذكر الحكيم . فيما يتصل بالمراحل التى يمر بها الإنسان منذ كونه نطفة الى أن يتوفى فيبعث للحساب يوم القيامة ، جاءت الإشارة الى كل ذلك مع الإشارة الى أصله من

حيث كونه ترابا ، فى مثل قوله تعالى[1] : ﴿ يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشـــاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج • ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ •

وتمرّ بكل فرد فترة قبل أن يقع تحت التكليف • وفيما يتصل بالأمم فان فترة عدم التكليف بالنسبة لها هى التى تكون فيهـــا بالضرورة غافلة عن تعاليم السماء • وتنتهى هذه الفترة بارسال الله تعـــالى رسوله إلى هذه الأمة أو تلك ، وعندها تجد كل أمة ذاتها عند مفترق طريقين ، طريق الهدى والفلاح ، وطريق الضلال والشقاء •

وكما تعنى تعاليم السماء بتحقيق سعادة الانسان فى الحياة الآخرة ، كذلك تعنى بتحقيق سعادته فى الحياة الدنيا • بل لا يمكن بحـــال من الأحوال أن تفصل الأولى عن الآخرة ، لأن الحياة الدنيا دار العمل والحياة الأخرى دار الثواب والعقاب • قال تعالى[2] : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ ومن هنا كان مفهوم العبادة فى الاسلام واسعا الى أبعد الدرجات ، فهى ليست وقفا على الشعائر الدينيـــة فحسب ، انما تشمل كل عمل طيب نافع يريد الإنسان من القيام به وجه ربه الأعلى بما فى ذلك الطعام الذى يضعه المسلم فى فم زوجته وهو يريد بذلك وجه ربه الأعلى •

وحيث انّ المفروض فى الإنسان أن يكون حريصا على ثواب الآخرة ، وانّ وسيلة ذلك العمل الصالح فى الدنيا ، اذن فالســـعادة والراحة والاطمئنان ، ينبغى أن يكون كل ذلك من نصيب الإنسان فى الحياة الدنيا ، بسبب تلك الأعمال الطيبة التى يقوم بها • وقد عبر عن ذلك فى قوله تعالى[3] : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن

---

(١) الحج ، ٥ ــ ٧ .
(٢) الذاريات ، ٥٦ .
(٣) النحل ، ٩٧

فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ . وهذا هو وعد الله تعالى لأولئك المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، قال تعالى[1] : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

وقد تعهد ربّ العزة بألا يغير على مؤمن عمل صالحا أية نعمة امتن بها عليه ، وأن هذا التغيير إنما يتمّ بعد أن يغير هؤلاء من أعمالهم الطيبة ويستبدلوا بها الأعمال الخبيثة السيئة . قال تعالى[2] : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾

وإن انتقام الله تعالى من أولئك الذين استبدلوا الأعمال السيئة بالطيبة ، إنما يكون فى نوعه وحجمه ، على قدر الانحراف عن الطريق القويم ، كى تعود الأمة سريعا الى سابق عهدها ، والى الطريق القويم الذى هجرته جهلا منها وحمقا . وأقرب مثل يضرب بهذا السبيل هو أن المسلمين هذه الأيام ، حينما انحرف أكثرهم عن الطريق القويم سلط الله تعالى عليهم شر خلقه الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة فطردوا المسلمين من فلسطين والقدس والكثير من البلاد الاسلامية . يحدث ذلك بارادة العليم الخبير ، ليس لأن اليهود خير من المسلمين ، ولكن لأن المسلمين انحرفوا عن الطريق القويم ، فإذا عادوا إليه مرة أخرى ، يعود اليهم ، باذنه تعالى ، سابق عزهم وتالد مجدهم . أما اذا كان انحراف الأمة عن الطريق القويم أمرا نهائيا ولا أمل فى عودتها اليه مرة أخرى فانه يتحقق بشأنها قوله تعالى : ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ .

---

(١) النور ، ٥٥ .
(٢) الرعد ، ١١ .

ولعل هذا الحديث المقتضب مفيد لنا فى نظرتنا المتأملة للمجموعة التالية من الآيات التى تتحدث عن مسئولية كل من المحسن والمسىء . قال تعالى : ﴿ وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصـــيرا ﴾ .

ونود أن نقف بشأن أولى الآيات عند لفظة « طائر » قال تعالى : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا » فما المراد بلفظة طائر فى الآية ؟

فى سبيل الاجابة عن هذا السؤال نحب أن نقول بأننا ســنحاول الاستفادة من الظاهرة اللغوية التى تعرف بها اللغة العربية وتمتاز ، وهى ظاهرة الاشتقاق ، التى لها كبير فضل فى لم شتات المعنى المتناثر فى أكثر من لفظة تعود كل الى أصل لغوى واحد متضمن لقاعدة المعنى الأصلية التى انطلقت منها أو تفرعت عنها كل الألفاظ التى حلقت فى أجواء المعانى المتطورة ،حاملة معها بصمات المعنى الأصلى . ويتمثل ذلك فى اشتمال كل لفظة مشتقة على الحروف الأصلية .

ولو أردنا تطبيق هذا الكلام مثلا على لفظة الطائر التى جاءت فى الآية الكريمة لتبينا فيها الحروف الأصلية (الطاء والياء والراء) وهى الحروف التى نتبينها فى كل لفظة انطلقت من هذه القاعدة أو تفرعت بدورها عن تلك اللفظة المنطلقة . نتبين ذلك فى لفظة الطائرة مثلا أو المطار أو الطيران وما الى ذلك . والشىء ذاته يقال عن كل الألفاظ العربية المشــتقة .

وحيث ان لفظة « طائر » فى الآية الكريمة وحيدة ، ليس معها النظير الذى يتيح لنا أن نطبق قاعدة الاشتقاق عليها وعلى نظيرها . وحيث ان لفظة « طائر » هذه ، جاءت فى غير ما موضع فى القرآن الكريم ومعها هذا النظير فانا نود الانتقال الى اللفظة مع نظيرها علنا نوفق فى تحديد

المعنى المراد بلفظة « الطائر » جاء فى سورة النمل[1] بشأن صالح عليه السلام وقومه قوله تعالى : ﴿ يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ، قالوا اطيرنا بك وبمن معك ، قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون » وجاء فى سورة يس[2] عن رسل الله الثلاثة وأصحاب القرية الظالمة قوله تعالى : « قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم • قالوا طائركم معكم أءن ذكرتم ، بل أنتم قوم مسرفون » •

وهذا يعنى أننا الآن بصدد عمليتين لا عملية واحدة وهما التطير ، بمعنى التشاؤم والطيران ، وهى العملية التى يقوم بها الطائر فهل ثمة من علاقة بين العمليتين أو الفكرتين ؟ وهنا نجد أنفسنا أمام عادة بغيضة للعرب فى الجاهلية ، هى عادة التطير التى حاول الاسلام جاهدا القضاء عليها ، فقد كان العرب يعتمدون فى تصرفاتهم على اتجاه الطائر الذى يهيجون • يتفاءلون بهذا الاتجاه ويتشاءمون بذاك • وذلك يعنى أن عملية التطير مأخوذة من حركة الطير وهذه هى العلاقة بين العمليتين • مع العلم بان ظاهرة التطير اتسعت فشملت الظباء وحيوان الفلاة وامتدت حتى الانســـان •

وحينما ننظر الى لفظة « طائر » فى كل من سورة يس وسورة النمل ، فانه يتضح أن لفظة « طائر » تجىء على ألسنة رسل الله تعالى رد فعل لتشاؤم كل من الجماعتين من رسل الله تعالى • وهذا يدل على أن لفظة طائر هنا تتمشى بالضرورة مع فكرة التشاؤم التى أثارتها كل من الجماعتين والمعنى أن سبب شئومهم معهم •

وينبغى أن نبين أن عملية التشاؤم فى نظر كل من الجماعتين تختلف تماما عنها فى نظر رسل الله تعالى وهم الذين جاء على لسانهم مراعاة للنظير لفظة الطائر ، وبقصد دفع ما اتهموا به • ان كلا من الجماعتين الظالمتين تربط لجهلها بين ما حل من سوء وبين دعوة رسل الله تعـــالى لهم لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له • بينما يريد رسل الله تعالى بلفظة الطائر هنا لكون كل من الجماعتين سببا فيما حل بهم من سوء ،

---

(١) آية ، ٤٦ ، ٤٧
(٢) آية ، ١٨ ، ١٩ .

معنى قريبا من الذى جاء فى مثل قوله تعالى[1] : ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فلم نتعرض كل من الجماعتين للسوء الا بسبب سوء عملها .

مما سبق ننتهى الى أن لفظة الطائر فى كل من آية سورة يس وآية سورة النمل تدل على عملية التطير أو التشاؤم ، وأنها ابتدأت عند العرب من عادتهم فى تهييج الطيور . فاذا اتجه الطائر يسارا وأرى مستثيره جانبه الأيسر فانه يتشاءم من الطيران فى هذا الاتجاه . ويسمى هذا الطائر بالبارح[2] .

ولكن هذا الطائر ذاته يمكن حينما يستثار أن يتجه يمينا ويرى بالتالى جانبه الأيمن ، وهنا يتفاءل المستثير ، وهذا الطائر يسمى بالسانح[3] .

اذن نحن فى حقيقة الأمر بصدد موقفين نفسيين مختلفين للمستثير من الطائر . وهذا الأمر غاية فى الأهمية ، لأنا اذا كنا تبينا من قبل أن لفظة طائر تدل على التشاؤم فقط ، فانها الآن تدل على التفاؤل أيضا . وقد استعمل العرب لفظة الطائر بسبب عملية استثارة الطائر أساسا ، لما يتمنون به ويتشاءمون . فلا يرمز بلفظة الطائر للشر فقط بل وللخير أيضا . ومن هنا قيل : انّ الطائر بمعنى الحظ ، وبمعنى عمل الانسان الذى قلده وبمعنى الرزق[4] .

فاذا عدنا الى لفظة الطائر التى جاءت فى قوله تعالى من سورة الاسراء : ﴿ وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ فبما أن الحديث هنا يشمل المؤمنين والكافرين ، البررة والفجار ، لذلك يمكن القول : انّ لفظة الطائر هنا انما يراد بها ما قدّر للانسان من خير أو شر ، وما قام به فى حياته من خير يثاب عليه أو شر يعاقب عليه . وكأن استعمال لفظة الطائر هنا بهذا المعنى ليدل على الرحلة الطويلة التى قطعها اللفظ حتى انتهى الى هذا المعنى .

---

(١) الرعد ، ١١ .
(٢) القاموس « برح » .
(٣) القاموس « سنح » ويلاحظ أن بعض العرب يتيمنون بما يتشاءم به أولئك ويتشاءمون به مما يدل على فساد القاعدة والذوق معا .
(٤) انظر القاموس « طير » .

ان لفظة « طائر » انتقلت بسبب تفاؤل العرب وتشاؤمهم — والتشاؤم أكثر — الى كل ما يتفاءل به ويتشاءم من ظباء وحيوان فلاة وانسان وهكذا • ثم الى العمل الذى يصدر من العربى آنذاك بناءً على اتجاه الطائر المستثار • ثم الى الذى هو من نصيبه من خير أو شر بناءً على عمله •

وإن القرآن الكريم لينقل هذه اللفظة الى مرحلة أخرى ويستعملها استعمالا جديدا • فإذا كان العرب يريدون بلفظة الطائر فى مثل هذه المناسبة أى عمل يصدر من الانسان بناءً على اتجاه الطائر ، فان القرآن الكريم يستعمل اللفظة ذاتها ويريد بها العمل الذى يقوم به الانسان وفقا لتعاليم الاسلام وهذا هو الخير كل الخير ، أو خلافا لهذه التعاليم ، وهذا هو الشر كل الشر • والانسان بناء على ذلك مثاب أو معاقب يوم القيامة •

وهكذا يتبين أن القرآن الكريم ينظر الى لفظة الطائر من زاوية دلالتها عندالعرب على الخير والشر ، ولكنه يعطيها معنى جديدا اسلاميا ، وينتقل بها الى مرحلة روحية عالية لم تكن اللفظة لتصل اليها لولا الاسلام ولولا الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه •

ان لفظة الطائر فى قوله تعالى : ﴿ وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ لتدل على ما قدر للانسان وصدر عنه من خير أو شر بناءً على الموقف الصحيح أو غير الصحيح من القرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم • بناءً على موقف ذلك الانسان من الأوامر والنواهى فى الاسلام وما صدر منه بعد ذلك من أفعال حسنة أو سيئة ، فان الملكين عن يمين الانسان وشماله يدونان كل صغيرة وكبيرة تصدر منه • قال تعالى[1] : ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ، اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ﴾ •

---

(١) ق ، ١٦ — ١٨ .

وحيث إن كل إنسان فى الإسلام هو المسئول وحده عن كل ما يصدر عنه من عمل حسن أو سيىء ، فقد عبّر عن هذه المسئولية فى الآية الكريمة بلزوم هذا الطائر ــ بالمعنى الإسلامى الذى عرفنا ــ لعنق الإنسان . والمعنى أن كل إنسان يوم القيامة لا يستطيع الا أن يعترف بكل ما صدر عنه فى الدنيا من أعمال . فان كان الذى صدر عنه خيرا ، فهو حريص كل الحرص على أن ينسب اليه . وان كان الذى صدر منه غير ذلك . فانه لن يستطيع أن ينكر منه شيئا . قال تعالى فى سورة يس[1] : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

وإن أكبر مسعف لنا على فهم لفظة الطائر بالمعنى الذى انتهينا اليه وأنه رمز على أعمال الناس من خير أو شر ، هو أن الآية الكريمة تتحدث عن كل الناس بلا استثناء ، ففيهم من عمل صالحا وفيهم من عمل غير ذلك . قال تعالى : ﴿ وكل إنسان ﴾ .

وكما اتخذ الطائر رمزا للعمل الذى يصدر من الإنسان ، فقد جعل ذلك الطائر الذى لا يمكن أن يخطىء صاحبه يوم القيامة ، بمنزلة الطوق الذى يحلى المطوقة ، إن كان العمل حسنا . وبمنزلة الغل فى العنق أو الغريم الممسك بخناق غريمه ان كان العمل سيئا . ان القول « ألزمناه » والقول « فى عنقه » أوحيا بهذه المعانى المتقابلة وفقا للأعمال المتقابلة ، لكل من الصالحين والمفسدين ، المؤمنين والكافرين . ومعنى هذا أننا ما زلنا مع ظاهرة التقابل فى المعانى والاختلاف فى الصفات التى قلنا إنها تطبع مجموعة من الآيات بطابعها ومنها الآية الكريمة التى نحن بصددها .

ونود أن نقف بعد ذلك عند لفظة كتاب فى قوله تعالى : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ . معروف معنى لفظة الكتاب الذى يتضمن الكلمات التى تقرأ ، وقد نصت على ذلك الآية التالية ، قال تعالى : ﴿ اقرأ كتابك ﴾ .

وحيث إن صدر الآية الكريمة قد استعملت فيه لفظة الطائر فى غير معناها القريب المعتاد ، وحيث إن قراءة الكتاب تكون سهلة ميسورة

---

(1) آية ، ٦٥ .

بشأن من يجيد القراءة من البشر ، وهم قلة بالقياس للأكثرية التى لا تجيد القراءة ، فهل فى الإمكان أن ننعم النظر فى لفظة الكتاب أولا ، وجملة اقرأ ، التى ابتدأت بها الآية التالية ثانيا ، علنا نتبين فيهما غير المعنيين القريبين المعتادين ؟

أولا وقبل كل شىء ينبغى أن نقرر أن ارادة الله تعالى لو شاءت لأولئك الذين لم يكونوا فى الحياة الدنيا قارئين ، أن يكونوا مجيدين للقراءة يوم القيامة ، فما أهون ذلك بشأن الفعال لما يريد ، والذى اذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون • ولكن بما أن هناك وسائل أخرى بشأن الذين لا يقرأون وفى امكانها أن تقوم بذات الدور الذى تقوم به الكتابة بشأن المجيدين للقراءة ، وبما أن فى القسم الأول من الآية جنوحا لاستعمال لفظة طائر استعمالا جديدا واعطائها معنى ليس لها من قبل ، ففى امكاننا بناءً على ذلك أن نقول : إن المراد فى الآية الكريمة بالكتاب الذى يقرؤه الناس ، ليس فقط الكتاب الذى يقرأ انما يكون بشأن كل إنسان الكتاب المنشور أمامه والذى يستطيع بالنظر اليه أن يعى كل صغيرة وكبيرة قام بها فى حياته وأشار اليها ذلك الكتاب بالوسيلة التى يفهم تماما ذلك الإنسان ، سواء أكان قارئا أم غير قارىء •

وبهذا المفهوم يكون استعمال كل من الكتاب والقراءة قد روعى فيه اختيار أكثر الوسائل قدرة بالإجماع على تلقى ما يلفظ به كل إنسان ويقوم به من أعمال وعلى حفظه وتذكير صاحبه به يوم القيامة كاملا غير منقوص • فاستعمال الكتاب والقراءة ، من قبيل إطلاق أقوى الأجزاء دلالة على الكل •

ومما هو مسعف لنا على ما ذهبنا اليه من أن الكتاب والقراءة قد استعملا استعمالا واسعا ، هو أنه معروف تماما أن بعض الأشخاص قد حرموا فى الحياة الدنيا من نعمة الإبصار وبالتالى هم غير مهيئين أساسا لأن يكونوا قارئين •

وحينما يقف الإنسان على كل صغيرة وكبيرة قام بها فى الحياة الدنيا ، فانه سيكون منصفا فى الحكم الذى سيصدره على نفسه المستحقة للعقاب أو للثواب ، أو أن الإنصاف فى الحكم هو الذى يتوقع من الحكم العدل الذى يقف موقفه • قال عز من قائل : ﴿ وكل انسان ألزمناه طائره

فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ .

وقد عمقت الآية التالية المسئولية الكاملة للفرد فى الإسلام وذلك بعد أن اتضح له الطريقان المختلفان المتقابلان ، طريق الهدى وطريق الضلال قال تعالى : ﴿ من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

لقد اقتضت حكمة الله تعالى ألا يعذب واحدا من البشر الا بعد أن تكون التعاليم السماوية قد وصلته عن طريق الرسول الذى بعث . وبناءً على الموقف من هذه التعاليم يكون الثواب والعقاب اللذان يجوز أن يكونا فى الدنيا قبل الآخرة . وهذا يدل على أن نظرة الاسلام للإنسان شاملة ، منذ أن وقع تحت التكليف الى أن يبعث يوم القيامة فيثاب أو يعاقب ، وفى ضوء هذه النظرة الشاملة العادلة سنتأمل الآية الكريمة التالية ، قال تعالى : ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ .

وكى نتبين معنى كل من الإرادة والأمر فى الآية الكريمة نود أن نضع مجموعة من الأسئلة ونجيب عنها فى ضوء نظرة الاسلام الشاملة العادلة للإنسان ، متى يصح اهلاك قرية من القرى ؟ بعد أن يخالف سكانها التعاليم السماوية فيفسدوا فيها ويفسقوا .

ومَن الذى يسبق الى الفسق من سكان القرية ويتمادى فيه عادة ، المترفون أم الفقراء ؟ المترفون بطبيعة الحال ، خاصة وأنهم فى العادة من الطبقات التى تسمى فى المجتمع بالراقية ، والتى من الجائز أن تمتد الى السلطة . لذا كانت قادرة على أن تنحرف بالمجتمع عن الطريق القويم . وهذا يعنى أنها خانت الأمانة .

ومتى تستطيع هذه الفئة أن تستمر فى طريقها الخاطىء ؟ حينما تكون جوانب ذلك المجتمع كله مضعضعة واهية ، فللعامة بعض نصيب المترفين من الأنحراف . وربما كان عند هؤلاء الاستعداد لمجاراة المترفين ولكنهم مكرهون لا أبطال .

واذا بلغ الأمر بذلك المجتمع الى تلك الدرجة المنحطة ، فهل يستحق أن يعاقب على مخالفته المتعمدة لأوامر السماء أم لا يستحق ؟ انه يستحق أن يعاقب عقابا عسيرا لأنه سائر بمحض ارادته فى الطريق الخاطىء ، رغم علمه بالطريق الآخر الصحيح .

أليس كل الذى يصدر عن هذا المجتمع من أعمال ، يخضع تماما لعلم الله تعالى التام المحيط بما كان ويكون وسيكون ؟ بلى . إنه يخضع تماما لعلم الذى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه والذى سبق فى علمه عمل كل فرد خلق .

وبعد كل هذه التساؤلات والأجوبة عليها ، وبناء على العلم اليقينى بأن الله تعالى لا يريد لعباده الا الخير ولا يأمر الا بالخير ، وقد قال عز من قائل[1] : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ نقول : إن الإرادة التى جاءت الاشارة إليها فى الآية الكريمة رمز للقدرة المطلقة للفعّال لما يريد . وأن الأمر رمز للعلم التام للذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . فحيث إن قدرة الله تعالى مطلقة فقد عبرت الآية الكريمة عن ذلك بالقول : ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية ﴾ بمعنى أن اهلاك هؤلاء المنحرفين عن الطريق القويم قد لزم ، ولم يكونوا ليفوتوا الله عز وجل الذى أمهل ولم يهمل فاستمروا فى طغيانهم يعمهون ، فحق عليهم القول باهلاكهم . وحيث إن علم الله تعالى كامل وتام ولا علاقة للزمن به ألبته ، وقد سبق إلى علمه عز وجل انحراف هؤلاء الأقوام ، والعقاب الذى أعد لهم فى الدنيا قبل الآخرة ، لذا جاء فى الآية الكريمة دليلا على علم الله تعالى التام قوله تعالى : ﴿ أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾ بمعنى أن مصير هؤلاء معلوم من قبل للذى يعلم السر وأخفى .

والمراد بالقول الذى يحق عليهم إهلاكهم والانتقام منهم فى الدنيا وادخالهم النار فى الآخرة .

وواضح عناية الآية الكريمة بالسلوك الانسانى واشعار الفرد بأنه مسئول مسئولية كاملة عن كل ما يصدر عنه من فعل أو قول أيضا .

وقد بينت الآية الكريمة التالية صراحة أن الإهلاك إنما تم بسبب الذنوب ومخالفة العباد أوامر الله تعالى . قال عز من قائل : ﴿ وكم

---

(١) الذاريات ، ٥٦ .

أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ لقد استوجبت الكثير من الجماعات ابتداءً من عهد أول رسول بعثه الله تعالى لعباده ، ألا وهو نوح عليه السلام ، لعذاب الله تعالى وانتقامه شر انتقام بسبب كفرهم وذنوبهم ، ومن هؤلاء بنو اسرائيل الذين هم من ذرية من حمل الله تعالى فى السفينة مع نوح عليه السلام وبذلك تحقق فى القوم قوله تعالى[1] : ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .

من كان يريد العاجلة ومن أراد الآخرة :

قال تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

ونود أن نقيد تأملاتنا على هذه الآيات التى تتحدث عن فريقين مختلفين متباينين ، فى هيئة نقاط .

أولا : إنّ الذى يريد العاجلة مكتفيا بها غاية لوجوده فى هذه الحياة الدنيا ، سيجد نفسه خاليا من التكاليف ، صفرا من الأعمال الإيجابية الصالحة ، مقبلا بكله على مادنا من الأفعال وتدلّى ، حريصا على كل متعة رخيصة مهما ارتفع ثمنها ، لأنه يعتبر هذه الحياة الدنيا غاية فى ذاتها . لذا لم يكن له يوم القيامة سوى الخسران المبين ، وكانت حياته الشقية هيّنة ولا طعم لها لأنها خلت من صالح الأعمال التى يجد المؤمن حلاوة فى القيام بها مهما كانت شاقة لأنه على يقين من الجزاء الأوفى يوم القيامة . فهو حريص على أن ينتقى أحسن معبر يوصله الى هدفه المنشـــود .

ومن هنا كان الذى يريد الآجلة مطالبا بأن تتحقق فيه شروط أساسية ثلاثة بنص الآية الكريمة ، بينما الذى يريد العاجلة ليس مطالبا بشرط واحد منها . وهذه هى الشروط الثلاثة (١) النية الصادقة وقد نصّ

---

(١) هود ، ١١٩ .

عليها القول : ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ (٢) العمل الطيب الصالح ، والى ذلك أشارت هذه الزيادة على القول السابق : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ﴾ . (٣) الإيمان التام الكامل . والى ذلك أشارت هـذه الزيادة على القولين السابقين : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾ . لقد شاءت ارادة الله تعالى أن يكون طريق الخير محتاجا الى الكثير من الاستعدادات والواجبات والأعمال ، بل والتضحيات .

ثانيا : شاءت ارادة الله تعالى أن يكون ثواب الذين يريدون الآجلة كبيرا يوم القيامة ، ومن الجائز أن يضاف الى ذلك ثواب الدنيا الذى يصح أن يتمثل فى تلك الحياة الطيبة التى وعدهم بها رب العزة فى الجاه والسلطان، اضافة الى الأمن والطمأنينة وراحة البال ، أما الذين يريدون العاجلة فليس لهم يوم القيامة من ثواب الله تعالى أدنى نصيب . وفى الحياة الدنيا التى جعلوها غاية لهم ووكدا ، فَلِهَوان هذه الحياة على الله تعالى ، من الجائز أن يتحقق لهم ما يريدون ، كله أو بعضه أو أكثر مما يريدون . ولكنها حياة فانية وصائرة الى زوال وسيجد هؤلاء أنفسهم مهانين يوم القيامة مطرودين من رحمة الله تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشـــاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصـــلاها مذموما مدحورا » ويلاحظ أنه يجىء فى الآية الكريمة جملة « نشاء » دليلا على مد الله تعالى الظالمين فى طغيانهم يعمهون .

ومن الجـــائز ألا يتحقق لهؤلاء فى العاجلة شىء مما حرصـــوا على تحقيقه . وبذلك ينطبق عليهم قوله تعالى[1] : ﴿ خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ﴾ .

ثالثا : حينما تشاء إرادة الله تعالى أن يتحقق للذين يريدون العاجلة ما يريدون ويأملون ويتمنون ، ، فذلك دليل على هوان هذه الحياة الدنيا ، والا لمـــا شرب الكافر فيها شربة ماء . وفى المقابل ربما اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن يقتر على الذى يريد الآجلة فى الرزق ، من باب الابتلاء كما يثاب فى الآخرة على صبره واحتسابه .

رابعا : كأن الاختلاف فى طريقة التعبير عن الذى يريد العاجلة والذى يريد الآجلة ، فقد جاء عن الأولين القول : ﴿ من كان يريد ﴾ وعن الآخرين

---

(١) الحج ، ١١

القول : ﴿ ومن أراد ﴾ دليـــل على الأمل فى كون الذى يريد العاجلة سيتحول سريعا الى الرغبة فى الآجلة • وكأن تلك الرغبة السابقة نزوة طارئة محدودة بزمن خليق به أن يقال عنه انه مضى وانقضى •

خامسا : لو ألقينا نظرة سريعة على أى مجتمع • فالذى يبدو لأول وهلة أن الناس من حيث الرزق درجات • والى ذلك أشار مثلا قوله تعالى[1] : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه ســـواء ، أفبنعمـــة الله يجحدون ﴾ ويحدث ذلك لحكمة يريدها عالم السر وأخفى • وحيث إنّ هذا النوع من التفاضل إنّما يحدث فى دار الفناء التى لا يمكن أن تكون فى ذاتها غاية لمؤمن وهدفا ، لذلك اكتفت الآية الكريمة باتخاذ التفاضل فى الدنيا مطية للتفاضل الحقيقى يوم القيامة ، يوم التغابن • قال تعالى : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضـــهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضـــيلا ﴾ •

ويلاحظ أن الآية فى حديثها عن الدّنيا أشارت الى التفضيل واكتفت به • بينما هى فى حديثها عن الآخرة أشارت الى الدرجات أولا ثم الى التفضيل ثانيا • فعلام يدل ذلك ؟ على التفاضل الحقيقى فى الآخرة • التفاضل الدقيق العادل العديد الصور الكثير الدرجات • أما التفاضل فى الدنيا فى المال والجاه والسلطان وما الى ذلك فلا قيمة له ولا يعتدّ به لذا كانت الاشارة اليه فى الآية الكريمة عابرة •

وإذا حاولنا البحث عن هيئة من التفاضل فى الحياة الدنيا أقرب الى موافقة التفاضل الصحيح يوم القيامة ، فربما تبينا تلك الهيئة فى المجتمع الاسلامى الذى تتفاوت فيه أقدار الناس بناء على تقواهم وأعمالهم الصالحة ، وربما استنتجنا صورة قريبة من مثل هذا النص الذى يتحدث عن مجتمع صدر الاسلام[2] • « وروى أن قوما من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضى الله عنه فخرج الإذن لبلال وصهيب ، فشق على أبى سفيان • فقال سهيل بن عمرو : إنّما أوتينا من قِبَلِنا

---

(١) النحل ، ٧١ .
(٢) الكشاف ، ٢٢٨/٢ .

انهم دعوا ودعينا ، يعنى الى الاسلام ، فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر ، فكيف التفاوت فى الآخرة ؟ ولئن حسدتموهم على باب عمر ، لما أعد لهم فى الجنة أكثر » قال عز من قائل[1] : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » .

(١) الحجرات ، ١٣ .

(٥)
آيـــات الحكمـــة

عناية سورة الاسراء بجانب السلوك الإنسانى كبيرة جدا ، كى تأخذ بيد الانسان أثناء رحلته الطويلة فى هذه الحياة الدنيا الى الطريقة التى هى أقوم ، وذلك ضمن هداية القرآن الكريم للإنسان كى يجمع بين خيرى الدنيا والآخرة • ومن مظاهر عناية هذه السورة الكريمة بجانب السلوك الإنسانى آيات الحكمة فيها ، المتضمنة لمجموعة من الأوامر والنواهى ، غير قابلة للنسخ فى كافة الشرائع السماوية كما قيل •

وحيث إن أهم قضية ينبغى أن يكون موقف الانسان منها صحيحا هى قضية توحيد الله تعـالى وعبادته عز وجل وحده لا شريك له ، تلك القضية التى من أجلها خلق الله تعالى الخلائق ، فكل حركة للانسان أو سكنة ينبغى أن تكون مراعية لهذه القضية كل المراعاة ، ومن هنا كان مفهوم العبادة فى الاسلام واسعا الى أبعد درجات الاتساع ، لذا كان من الطبيعى أن تكون قضية التوحيد هذه ، أولى القضايا التى عنيت بها آيات الحكمة واهتمت لها • فاذا كانت قد ابتدأت آيات الحكمة بها فانها قد ختمت بها أيضا ، وليس هناك القضية الأخرى التى عنيت بها آيات الحكمة قريبا من هذه العناية •

وهذه هى آيات الحكمة التى تؤكد بحق القول : إن القرآن الكريم منهج كامل للحياة الهنية ، يتيح للإنسان أن يجمع بين خيرى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : لا تجعل مع الله الها آخر فتقعـد مذموما مخذولا • وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما.واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا • ربكم أعلم بما فى نفوسكم ، ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا • وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السـبيل ولا تبذر تبذيرا • ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان

لربه كفورا • واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا • ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا • ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، انه كان بعباده خبيرا بصيرا • ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا • ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا • ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا • ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا • وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا • ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا • ولا تمش فى الأرض مرحا ، انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها • ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا ﴾ • فمع حبات عقد هذه الحكم واحدة واحدة •

النهى عن الاشراك بالله وعقوق الوالدين :

قال تعالى :﴿ لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا • وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا • ربكم أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا ﴾ •

الآية الكريمة الأولى تدعو بحرارة الى توحيد الله عن طريق النهى عن الاشراك معه عز وجل غيره • وكان نصيب المشركين من جهة المؤمنين الذم والإهانة ، ومن جانب ما يعبدون من دون الله تعالى الخذلان المبين فى الدنيا والآخرة •

والحقيقة أن جملة « فتقعد » فى الآية الكريمة بإيحاءاتها المختلفة مغرية لنا بأن نقف عندها وقفة متأنية • وهنا تسعفنا اللغة أيما فائدة • فهذه اللغة العظيمة الخالدة تعطى لجملة « تقعد » من المعانى ما لا تعطيه للجمل الأخرى التى تشترك معها فى أداء المعنى • وأقرب جملة

لها هى « جلس » ومع أن هيئة القعود والجلوس يمكن أن تكون واحدة ، الا أن اتجاه حركة الذى يهم بالقعود يختلف عن اتجاه حركة الذى يهم بالجلوس • فالعرب تستعمل جملة جلس حينما يكون الشخص مضطجعا ، يقال : كان مضطجعا فجلس • وتستعمل جملة قعد حينما يكون الشخص قائما ، يقال : كان قائما فقعـــد •

فكأن الآية الكريمة حينما تستعمل جملة « فتقعد » لا تكتفى باعطائنا الهيئة التى ليس وراءها وراء فى القدرة على الإيحاء برضى القـــاعد بالذل واستمرائه للهوان وعدم رغبته فى تغيير الحـــال بأحسن منه ، إنما تضيف الى كل ذلك القدرة على الإيحاء بأن هذا الشخص أو ذاك قد اختار بمحض ارادته قعود الذل والهوان مفضلا له على انتصاب القامة ورفع الهامة دليل العزة والكرامة •

وأىّ ذل وهوان رضى بهما ذلك الشخص ؟ إنهما ذل الشرك وهوانه • وأية عزة وكرامة رغب عنهما وزهد فيهما ؟ إنهما عزة الاسلام لله رب العالمين وكرامة الإيمان بالله تعالى ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رســـولا •

إنّ كلّ هذه الإشعاعات المعنوية ، كانت جملة « فتقعد » قادرة على الأيحاء بها فى الآية الكريمة ، قال تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا ﴾ •

واذا كانت هذه الآية الكريمة قد دعت الى توحيد الله تعالى عن طريق النهى عن الشرك ، فان الآية التالية تدعو الى توحيد الله تعالى بصورة مباشرة ، وتقرن بذلك الأمر بالإحسان للوالدين ـــ وتكمل الآية التالية طبيعة ذلك الإحسان • قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين أحسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ •

ولو ذهبنا الى أن جملة قضى ـــ التى سبق أن مرت بنا بشأن بنى إسرائيل ـــ بمعنى حكم أو أمر ، فهى من الحـــكم والأمر والقضـــاء

والحتم[1] فان هناك معنى آخر مهما يظل دائما مرتبطا بهذه المعانى من الوجهة اللغوية ، وهو أن ما قضىَ به هو الحق كلّ الحقّ وهو العدل كل العـــدل .

ولو ذهبنا الى أن الخطاب فى قوله تعالى : « وقضى ربك » للمصطفى صلى الله عليه وسلم ، فانا نستطيع أن نضيف الى ذلك بأن كل انسان يصل اليه هذا القول فانه يستطيع أن يفهم بأن الكلام موجـــه اليه أيضا ، بل إنّ هذا الفهم هو الذى ينبغى أن يكون . بدليـــل أن الآية الكريمة تأمر ببر الوالدين ، ولم يكن والدا المصطفى صلى الله عليه وسلم آنذاك على قيد الحيـــاة .

وتأمل الانتقال الكريم فى الآية الكريمة ، من عبادة الله تعالى وحدهُ لا شريك له الى بر الوالدين . قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ﴾ وتقدير الكلام ، والله أعلم ، وقضى أن تحسنوا بالوالدين احسانا . ولكن الكلام مع الحذف أبلغ . وهذا بيّن .

واذا كنا نستطيع أن نقول : إنّ مناسبة الانتقال من عبادة الله تعالى الى بر الوالدين ، هو أنه عز وجل اذا كان قد أوجد الانسان من العدم ، فان والديه سبب فى وجوده بهذه الحياة الدنيا ، وأنه عز وجل اذا كان قد تكفل للإنسان برزقه فان والديه حريصان على مصلحته كل الحرص ، فاننا نستطيع أيضا أن نقول بكلّ إكبار وإجلال : إنّها المنزلة الرفيعة العالية للوالدين فى الإسلام ، الدين الحنيف الذى ارتضى رب العزة لخير أمة أخرجت للنـــاس .

وأية منزلة رفيعة عالية للوالدين وراء هذه المنزلة لهما فى القرآن الكريم ، حيث يقترن فى أكثر من موضع ، الدعوة الى برهما بالدعوة الى توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له ، وتوحيد الله تعالى هو السبب الذى من أجله خلق الله تعالى العباد ؟

والاقتران فى الذكر الحكيم بين الدعوة الى عبادة الله تعالى وحـــدهُ لا شريك له وبين الدعوة الى بر الوالدين ، فى الوقت الذى تعنى النهى عن أن يشرك بالله تعالى غيره ، هى تعنى أيضا النهى عن عقوق الوالدين

---

(١) انظر القاموس مثلا .

•• واذا كان قد جاء فى الذكر الحكيم عن الشرك بالله قوله تعالى[1] : ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـــاء ﴾ فإنا نستطيع قياسا أن نفهم أى عذاب شـــديد ينتظر عاق والديه • وقد جعلت السنة المطهرة كبيرة عقوق الوالدين عقب كبيرة الشرك بالله[2] .

واذا كان ديننا الحنيف قد دعا بالحاح الى بر الوالدين ، بل وقرن بين افراده عز وجل بالعبادة وبين برهما ، فقد أعطى الوالدة لمشقتها التى تفوق مشقة الوالد ، ولحاجتها الأكبر لفلذة كبدها ، عناية أكبر • قال عز من قائل[3] : ﴿ ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير ﴾ • وقال[4] : ﴿ ووصينا الانسان بوالديه احسانا ، حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمـــل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين ﴾ •

وحينما سئل المصطفى صلى الله عليه وسلم عن أولى الناس بالبر أجاب السائل مرات ثلاثا أمك ، وفى المرة الرابعة قال له : ثم أبوك[5] وقد استنتج البعض أن نصيب الوالدة من البر ينبغى ألا يقل عن ثلاثة أمثال ما للوالد[6] .

إن جملة قضى ، مهما كان المعنى الذى أصبحت تدل عليه ، من الأمر أو الحكم وما اليهما ، تظل مشدودة الى أصلها الذى اشتقت منه ، والذى يعتبر العدل والحق من مقوماته ، لأن الذى قضى هنا هو أحكم الحاكمين • لذا فان واو العطف فى قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين احسانا ﴾ قادرة على أن يكون لما بعدها نصيبه الموفور من العدل والحق اللذين هما من متعلقات ما قبلها • وهـــذه الحقيقة معمقة للقيمـــة الغالية لبر الوالدين فى الإسلام • ويؤكد ذلك تقديم لفظة الوالدين ﴿ وبالوالدين احســـانا ﴾ •

---

(١) النساء ، ٤٨ .
(٢) انظر صحيح البخارى ، ٤/٨ .
(٣) لقمـــان ، ١٤ .
(٤) الاحقاف ، ١٥ .
(٥) صحيح البخارى ٢/٨ .
(٦) تفسير القرطبى ٢٣٩/١٠ .

ويلاحظ أن الدعوة القرآنية هنا للإحسان للوالدين عامة وشاملة لأية مرحلة من العمر هما فيها •

وبما أن الوالدين ، حينما تتقدم بهما السن ، يغـدوان أكثر حاجة للأبناء ، الذين يكونون وقتها عادة فى ريعان الشباب وقديما قيل : من سره بنوه ساءته نفسه » • ففى تلك الأثناء يكون الفحص الحقيقى للمعدن الذى صيغ منه الأبناء والمعرفة الصحيحة عن مدى إثمار تربية الوالدين لأفلاذ الأكباد • لذا كانت عناية القرآن الكريم بالوالدين فى تلك السن أكبر من العناية بالفترات قبلها • وقد جاء فى ذلك قوله تعالى : ﴿ اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ •

وإما ، هى إن الشرطية ، زيدت عليها ما توكيدا لها[1] وهذا يدل ، بالإضـافة الى نون التوكيد الثقيلة ، على أهمية قضـية الإحسـان للوالدين ، وبخاصة فى تلك السن المتأخرة • ويقترن بجملة يبلغ الوصول والبلوغ والانتهاء ، بمعنى أن كلا من الوالدين قد بلغ المرحلة الحرجة التى هو معها بحاجة الى كل رعاية وعطف وعناية • وليست هنـاك الجملة الأخرى التى تستطيع أن تقوم بالدور الذى تقوم به جملة يبلغ • وليس ببعيد عن أذهاننا المعنى الذى توحى به لفظة البلاغة ، وبخاصة اذا ذكرنا معها الفصاحة • فاذا كانت الفصاحة تكتفى عادة بالدلالة على مجرد الإفصاح والإبانة ، كأن يقال : أفصح الصبح إذا ظهر ، وأفصح الصبى فى منطقه اذا أبان وأظهر • فان البلاغة تدل على المرحلة التالية من القدرة على نقل المعانى والتأثير فى السامعين والاستحواذ على أنفسهم • وكل ذلك من متعلقات البلوغ الذى يعنى الوصول الى الغاية والبلوغ الى النهاية •

ونتبين من القول « عندك » والخطاب موجه الى كل ابن ، شـدة الضعف المتمكن من كل من الوالدين ، بما فى ذلك الأب الذى اعتاد وقت نشاطه أن يعمل ويكدح خارج المنزل غالبا ، سعيا وراء لقمة العيش • أما فى هذه السن المتأخرة ، فان كلا من الأبوين يجد نفسه مضطرا

---

(١) انظر هنا البحر المحيط ٦/٢٦ •

لأن يكون عند ولده وفى معيته ، راجيا رحمة ربه ، طامعا أن تتمثل فى إحسان الابن ورحمته به خاصة وأن كلا من حيث الصحة آخذ للوراء باستمرار .

وواضح أن الدعوة القرآنية إلى بر الوالدين جاءت فى أسلوب الشرط الذى يربط بطبعه بين طرفى الجملة ويشد عضديها الى بعضهما شدا قويا .

ومما هو معمق لحقيقة الكبر بشأن الوالدين والضعف ، هو أنه يجىء فى الآية الكريمة القول : ﴿ أحدهما أو كلاهما ﴾ الذى يدل على أنه من الجائز حينما يكون الوالدان فى أولى مراحل الكبر أو على مشارفه ، أن يخترم الموت أحدهما ، وهذا هو الاحتمال الغالب . كما أنه من الجائز أن ينسأ لهما فى الأجل معا ، أو يردّا الى أرذل العمر ، وهذا هو الاحتمال الأقل . فدليلا على الاحتمال الغالب تقدمت الإشارة الى ذلك فى القول : « أحدهما » ودليلا على الاحتمال الأقل ، تأخرت الاشارة الى ذلك فى القول : « أو كلاهما » .

فما المطلوب من الابن — والابنة كذلك — أن يفعل حينما يبلغ الوالدان أو أحدهما تلك السن المتأخرة ؟ قال تعالى : ﴿ اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ .

ويلاحظ أولا على دعوة القرآن الخيّرة إلى بر الوالدين أنها تتناول بالذات ، وفى الدرجة الأولى ، القول الذى يمكن أن يخرج من بين شفتى الابن ، تهذبه وتنقيه وتصفيه . وفى تحقق ذلك تحقق لكل شىء بعده لأنه تبع . فحينما يكون القول طيبا طاهرا يكون الفعل كذلك .

وأية لفظة تلك التى ينهى القرآن الكريم الابن عن أن يقولها بحق والديه ؟ إنها اللفظة التى ليس هناك اللفظة الأبسط منها والأقل شأنا والا لاستعملها القرآن الكريم . إنها لفظة « أفّ » التى تدل على شىء قليل من التبرم والضجر . وهذا النهى للابن عن أن يقول لوالديه أقل شىء يكدّر به خاطرهما ، يتضمن بطبيعة الحال النهى عن أن يقول كل ما فوق ذلك وهذا ما تم فى الآية الكريمة التى اتخذت النهى عن قول « أفّ » وسيلة للنهى عن القول الأكبر من ذلك . ﴿ فلا تقل